

المستخلص

إن موضوع السردية واحد من الموضوعات التي لاقت اهتماماً كبيراً من الدارسين ، وكانت محطاً أنظارهم وموضع عنايتهم ، وقد استطاعت أن تسجل لها حضوراً واسعاً في الأوساط الأدبية ، فكُتبت فيها العديد من الكتب والرسائل الجامعية ، وشملت الدراسة الأدب بقطبيه (الشعر والنثر) ، وكان أن دأبت بعض الدراسات الحديثة ومنها هذه الدراسة على دراسة التراث العربي القديم محاولةً قراءته قراءةً جديدةً على وفق المصطلحات النقدية الحديثة ، وما هذه الدراسة إلا محاولة لاستجلاء بنية السرد القصصي في واحدة من كبريات المدونات العربية المتمثلة في كتاب خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ) .

ويُعدّ هذا الكتاب من الموسوعات العلمية القيمة في علوم العربية ، إذ شحنته مؤلفه بالنصوص النادرة ، وحفظ لنا بقايا من كُتب قد فُقدت أو اندثرت ، مع عناية حازمة بالنقد والتحقيق لكل ما يُورده من ذلك . هذا إلى جانب سرده لكثير من أمثال العرب وبيان معانيها ، وحشده للغات القبائل ولهجاتها ، وحرصه على إيراد قصائد الأبيات التي تعرّض لها ، مع شرح الكثير منها شرحاً محققاً ، مستطرداً في ذلك إلى أخبار العرب وذكر أيامها في الجاهلية والإسلام ، وهذا ما جعله مادةً خصبةً لموضوع السردية وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن يُقسّم البحث على أربعة فصول يسبقها تمهيد سلط الضوء على ترجمة موجزة للشيخ عبد القادر البغدادي ؛ ودُكر فيه نسبه ورحلاته وشيوخه ومكانته وأثاره العلمية ، لاسيما ميدان البحث كتابه (خزانة الأدب) .

وقد جاء الفصل الأول بعنوان : (بنية الزمان) ؛ وقُسّم على مبحثين ، المبحث الأول : (الترتيب) وورد فيه الكلام عن الاسترجاع والاستباق. والمبحث الثاني : (المدة) وفيه الكلام عن الحذف ، والمجمل ، والمشهد ، والوقف . وأما المبحث الثالث فهو : (التواتر) واشتمل على الحكاية التقديرية ، والحكاية التكرارية ، والحكاية الترددية.

وجاء الفصل الثاني بعنوان : (بنية المكان) ، وتضمّن مبحثين ، المبحث الأول : (فاعلية المكان في نصوص خزانة الأدب). والمبحث الثاني : (أنواع المكان) وهما نوعان : المكان الأليف ، والمكان المعادي .

وأما الفصل الثالث فجاء بعنوان : (الشخصية) ، وقُسّم بحسب أهمية الشخصية على قسمين : الشخصية الرئيسية ، والشخصية الثانوية .

وأما الفصل الرابع وفيه خاتمة الفصول فخصّص ل(بنية الحدث) ، ودرّس الباحث فيه مفردة التتابع ، والدائري ، والبداية ، والبداية المنتصف ، والتضمين ، والتنضيد ، والتناوب . وختم البحث بأهمّ النتائج التي توصلت إليها الدراسة ، ويمكن اجملها بالآتي :

إن الاسترجاعات الواردة في أخبار الخزانة شغلت مساحة نصية كبيرة إذ ما وزنت بحجم الاستباقات المعروضة فيها ، ولعل ذلك كان ناتجا عن اغلب الاخبار المروية هي اخبار واقعية مما تسمح بدورها

لرجحان الاسترجاعات كافة على الاستباق وقد تجلت الاستباقات التي قدمها البغدادي في أشكال متعددة ، فمنها ما كان على شكل حلم أو رؤيا منامية ، ومنها ما كان في صورة نبوءة أو فراسة ، وأخرى جاءت في مظهر أمنية أو دعاء صادر على لسان إحدى الشخصيات الإخبارية ، وقد لاحظ الباحث أنّ هذه الاستباقات عموماً هي استباقات متحققة الوقوع سواءً أكان ذلك المدى القريب أم البعيد .

أما الأماكن الواردة فيمكن القول أنّ ألفتها كانت متأتية من كونها أماكن لاجتماع الأحبة وإنشاد الأشعار وتلحين الأصوات وغنائها ، وهذا ما جاء منسجماً مع موضوع كتاب الخزانة ، وقد شاع توظيف البغدادي لتقنية الحذف لمدة زمنية قد تطول أو تقصر؛ ذلك أنّ المؤلف كان محكوماً بهدف سعى من ورائه إلى تأليف كتابه وهو الحديث عن الفن القصصي وعناصر السرد الموزعة في حكاياته وقصصه .

الأمر نفسه نلاحظه في كثرة اعتماده تقنية الخلاصة ، ولعل ذلك كان ناتجاً عن كثرة الشخصيات التي يتعرض لها البغدادي من شخصيات دينية وسياسية وشعراء ، فتكون الخلاصة وسيلة المؤلف ليشمل كتابه ما أمكنه وسعة من هذه الشخصيات .

كذلك شيوع الحوار الخارجي في أخبار الخزانة وتأسيس معظمها على وفق البنية الحوارية ، وكأنّ البغدادي كان يدرك تماماً إنّ كتاباً بهذه السعة سيكون مدعاة لملل القارئ مما دفعه إلى توظيف هذه التقنية دفعا للتقريرية والأسلوب المباشر الرتيب.

ومما تجلّى كذلك تعدد الساردين في كتاب الخزانة بين سارد قريب من المحكي ، تمثل في مجموعة من الرواة نقل عنهم البغدادي ، وبين سارد متأخر الرتبة بعيد عن المحكي ، وقد جاءت أخبار الخزانة على وفق مستويي السرد : الموضوعي والذاتي ، وكان نصيب الموضوعي منها يفوق الذاتي ، إذ وردت كثير من الأخبار على لسان راوٍ عليم بما يقدم من أحداث وشخصيات ، إلا أنّ ذلك لم يمنع من ورود السرد الذاتي ليتنحى الراوي في بعض الأخبار فاسحا المجال أمام إحدى الشخصيات لتتولى سرد الأحداث بنفسها.

ومثل البغدادي بوصفه مؤلف الكتاب متلقياً قبل أن يكون راوياً من خلال تلقيه أخبار الخزانة رواة معاصرين أو نسخها من كتب أخرى ونقلها من سبقته ليعمد ببراعة أدبية إلى صياغتها صياغة جديدة تحمل لمساته الخاصة ، وقد تنوعت شخصيات الخزانة بين شخصيات رئيسة شكلت المحور الذي تدور حوله الأحداث وبين شخصيات ثانوية ذات دور تكميلي مساعد تدور في الاطار الذي تدور فيه الشخصيات الرئيسية ، وقد وردت هذه الشخصيات بنوعها على وفق أنماط متعددة ، منها ما كانت ذات طابع جدي سعى البغدادي إلى تقديمها برزانة واعتدال ومنها ما كان ذات هزل وفكاهة وردت على وفق هذا الجانب فضلاً عن شخصيات أخرى غلب عليها الطابع الأسطوري .

وأما على مستوى بناء الأحداث فإنّ أغلبها جاء على وفق بناء متتابع ذي نسق متسلسل الوقوع يليه بناء آخر تضميني عمد فيه الراوي إلى تضمين أخباره حكاية أخرى أو أكثر كانت تشترك مع الحكاية الأولى في ذات المضمون أو تفترق عنه ، وإلى جانب هذين البنائين كان هناك بناء آخر صيغت بعض

أخبار الخزانة على وفقه وهو البناء الدائري تبدأ الأحداث بنقطة ما ثم تعود لتنتهي من حيث ما ابتدأت وهذا البناء ورد قليلا مقارنة بالبنائين الآخرين.

وكان مما برز جليا شيوع السرد المفرد في أخبار الخزانة يروي مرة واحدة ، فغالبا ما كان البغدادي يروي مرة واحدة ، يليه السرد الاختزالي الذي يعمد فيه الراوي إلى اختزال روايته للأحداث ليقوم مرة واحدة برواية ما وقع أكثر من مرة ، ويتبع ذلك السرد المكرر ، إذ لمس الباحث أن البغدادي كان يكرر رواية هذا الخبر المروي يخص بالذكر أكثر من شخصية ، فيكون التكرار اسلوب البغدادي وهو يكرر ذلك الخبر الواحد - مع اختلاف بسيط في الصياغة اللفظية - مع ترجمته لكل شخصية من هؤلاء

وقد انمازت المادة السردية التي عرضها البغدادي وصاغها في شكل اخبار بجملته من الخصائص منها اعتماده على السرد الطلبي والنظام الاسنادي إلى جانب الاشتغال على آلية التضمين الحكائي وحضور النزعة الغرائبية للأخبار فضلا عن الاشتغال على آلية المفارقة وأخيراً تنوع المادة السردية . وفي ختام هذا العرض الموجز فإنَّ هَمَّ الباحثِ فيما يعتقده ، أن يُسلِّطَ الضوءَ على مصدرٍ مُهمٍّ من مصادر التراثِ العربي على وفق المناهج الحديثة ، ومن الله التوفيق .